

محاضرات مقياس الأدب الشعبي الجزائري

السنة الثانية ماستر أدب جزائري

الأستاذ: رشيد جقريف

المحاضرة 04: الغزل في الشعر الشعبي الجزائري

1/ توطئة:

كان موضوع الغزل والنسيب من بين الموضوعات التي احتفى بها الشعراء الشعبيون الجزائريون قديما وحديثا، كيف لا وهذا الأخير هو الوعاء الأنسب لصب مكنونات النفس من عواطف وأحاسيس والتعبير عنها والبوح بها، كما يعكس جانبا مهما من شخصية الإنسان ومجتمعه وثقافته وظل الغزل تعبير عاطفة الحب الإنسانية الخالدة يتردد على الألسنة في أقطار المغرب العربي والجزائر ونظم فيه الشعراء القصائد الطوال والمقطوعات الكثيرة «تصور ما يمنحه الشعراء ومن حولهم المرأة من عاطفة الحب والود، كما تصور ما يثير في نفوس أصحابه من الخواطر والأفكار وما يجنون من ثمرات المودة وزهراتها وما يصطلون من نيران الفراق وما يستشعرون من لوعاته»¹

وهو ما يسميه "شوقي عبد الحكيم" بموال العشق الأخضر الخصب، لأنه يتناول أنواع الشعر الغنائي المتصل بدورة الولادة والإخصاب بدءا بالحب والعشق والزواج ثم الولادة وما يليها من مراحل «وللغزليات مكانها المرموق عند شعراء الملحون وفيها يعرف فضل الشاعر على غيره، فهذا الباب يشترك فيه الجميع وينظم فيه كل من هب ودب، وطريقتهم في هذا الباب متحدة الأسلوب والاتجاه، بحيث لا تستطيع أن تفرق بين شاعر وشاعر إلا بما امتاز به كل واحد في التعبير والتنظيم. أما الطريقة التي يسيرون عليها فواحدة، فهم لا يتجاوزون وصف عواطفهم وتحرقهم وأشواقهم إلى الحبيب، ووصف جمال الحبيب والإغراق في تشبيه أجزاء بدنه جزءا

¹ شوقي ضيف: الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دت، ص 170.

جزءاً، فالوجه يشبه عادة بالقمر، والرقبة برقبة الغزال، والعين بالسهم أو البندقية أو بعين الغزال والبقر، والشعر بالغسق...»¹

الغزل في الشعر الشعبي (الأعلام، الموضوعات، المميزات)

يحفل تراثنا الشعبي بعدد من غرر شعر الغزل في القديم والحديث وقد نظم فيه الفقهاء وأهل الدين والعامة ولا شك أن من أعلامه البارزين وأنجمه الساطعين (المنداسي، وابن مسايب، وابن التريكي، ومصطفى بن ابراهيم، وابن كريو، ومحمد بن قيطون، والشيخ السماتي)، وليس يمنع أكثرية هؤلاء الشعراء الجزائريين اغترافهم من علوم الدين والفقه وتشبعهم بقيمتها وتعاليمها وانقطاعهم عن ملذات الحياة، أن ينصرفوا إلى اهتمامهم إلى فن الغزل، وقد عرفنا أن أكثرية رجال العلم والقضاء والفقه كان لهم نصيب من الغزل كابن حزم الأندلسي في طوق الحمامة في الألفة والآلاف، وكالوزير لسان الدين الخطيب فالتعبير عن حاجات النفس ورغباتها الفطرية سجية إنسانية لا يمنعها مانع ولا يحدها رادع «خاصة وأن كبار شعراء الملحون الجزائريين كانوا من بين أفراد النخبة ذات الثقافة العربية الإسلامية، وكان من بينهم من شغل مناصب مهمة مثل القضاء، من أمثال المنداسي وعبد الله بن كريو ومصطفى بن ابراهيم... الخ بل وإن منهم من كان ينظم شعراً في الفصحى وبالدارجة بنفس المستوى كالمنداسي المذكور قبل قليل. أضف إلى ذلك أن سيرة حياة البعض الآخر من هؤلاء الشعراء تشير إلى درجة تحصيلهم العلمي العالية في مجال علوم الدين والفقه، مثل الشيخ بن يوسف ومحمد بن قيطون والشيخ السماتي»² فهؤلاء الشعراء لم يكونوا أميين كما يتوهم البعض بل كانوا على جانب كبير من الثقافة والتحصيل المعرفي الذي تلقوه من الزوايا والكتاتيب التي كانت تمثل مؤسسات تعليمية وتنقيفية حافظت على التواصل العلمي والثقافي مع الأجيال السابقة في مختلف حواضر الجزائر المنتشرة عبر مختلف المناطق الجبلية والصحراوية.

¹ محمد المرزوقي: الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، د ط، 1967، ص 125-126.

² محمد الأمين: صورة مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 255.

فقد كان سعيد بن عبد الله المنداسي¹ صاحب التجربة الفريدة والغاية البعيدة وقد حاول في قصائده مجارات السابقين واتباع نهجهم (والشاعر يتقن ويكتب بالفصحى والعامية) ولربما أجاد في الثاني أكثر من الأول «ويغلب على كثير من قصائد سعيد بن عبد الله المنداسي التأثير بالشعر العربي، إن لم نقل أن بعض قصائده أقرب إلى الشعر العربي منها إلى الشعر الشعبي سواء من حيث أسلوبها، وألفاظها، كما أن شعر المنداسي يتميز أحيانا بروح صوفية، وخاصة منها القصائد التي يصف فيها حبه لسلمى، فيسمو بالحب أحيانا إلى نظرة صوفية عالية»² ويقول في وصف لوعته وشوقه إلى وصال سلمى ما نصه:

طال الليل لوصل سلمى هل من فجر ما شقك بعذاب قلبي يا ديجور

اين ما رمت لاخرك يلقاني صدر مثل البحر من أونك واقف محصور

غطى السهل ظلامك الساجف الواعر ما يرجالك منتهى وانا مدعور

جد بصبح فريح كم يا ليل تدر بدريرك الزهر تتجلى وتغور³

فالشاعر هنا يناجي هذا الليل السرمدى الطويل الذي لا نهاية له ويأمل منه بالتجدد عن صبح مفرح كاشف عن آلامه وأحزانه وهذه المعاني والألفاظ لا شك أنها مأخوذة عن أبيات امرئ القيس في معلقته التي يقول فيها:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلل

¹ عاش شاعرنا بفاس ومراكش مدة طويلة في رعاية العلويين، وكان معلما لمولاي اسماعيل فأكرمه هذا الأخير عندما تولى الحكم، وورد في كتاب الاستقصاء للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري ما يلي: «وكان (أي مولاي اسماعيل) سخيا حتى أنه أعطى للأديب الشهير المتقدم في صنعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيد التلمساني صاحب القصيدة (العقيقة) وغيرها نحو من خمسمئة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه إلا أنه ما فتئ أن أحس بالحنين إلى الوطن فرجع إلى تلمسان ومكث بها إلى أن أتى أجله» محمد بكوشة، ديوان سعيد بن عبد الله المنداسي، ص 04.

² التلي بن الشيخ، دراسات في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1989، ص 11.

³ أحمد الأمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، ص 256.

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيا لك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان شدت إلى صم جندل

وقد ألهمت هذه الأبيات قريحة الشاعر ومدته بفيض من المعاني المستجدة التي لم تخطر ببال امرئ القيس حيث كانت صور المنداسي البلاغية توحى بالإقبال على الحياة وعدم قطع حبل الرجاء والاستسلام لناب الدهر حيث بدا معاتبا الليل الذي أضنى قلبه بظلامه الحالك وهو في انتظار وتلهف لبزوغ الفجر لوصول حبيبته سلمى، وليله رغم وحشته وظلامه فهو يجود بالدرر المتلألئة، فلا تكاد تخبو درة حتى تطلع أخرى وهو بذلك يعبر عن تشوقه للحياة وإقباله عليها، على عكس امرئ القيس الذي تبدت صورته الشعرية بالثبات واليأس وفقدان الأمل فالنجوم لا تتحرك مشدودة بالحبال إلى صم جندل، والليل حالك لا يندر بصبح قريب، والنفس مثقلة يملؤها الحزن والأسى.

وتبدو هذه البراعة عند المنداسي في الاقتباس وتوليد المعاني من الشعراء القدماء مرة أخرى حينما نراه متأثرا بشعر امرئ القيس كثيرا خاصة عندما يقول:

عللني بحديث سلمى ننسى الهم واذكر وصف عريبها وأخبار القوم

رحلوا من سقط اللوى بضعاين سحم كان سحايب في سما صافي منعوم

بلعتهم بطن الفضاء من ذلك الرسم واصبح المغني أجرد صاعد مرقوم¹

فالشاعر هنا يذكر مرابع الحبيبة (سقط اللوى) والضعائن السحم على عادة الشعراء القدماء أصحاب المعلقات وكذلك (الرسم، والرقوم) وغيرها من دلالات ومعاني.

ومن بين من برعوا في شعر النسيب الشاعر التلمساني (ابن التريكي الملقب ابن زنفلي) وتروي الأخبار أن بداية المسيرة الأدبية الشعرية له ابتدأت أساسا على إثر حادثة حصلت معه أيام شبابه حينما ذهب لزيارة قبر أخيه في إحدى الأعياد فهاله منظر بعض الفتيات الحسان اللواتي

¹ التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص 27.

قد خرجن في ذلك اليوم وراعه المشهد وسلب لبه وقلب فكره فتفتقت قريحته وجادت بهذه القصيدة وهو واقف على قبر أخيه وهي قصيدة غزلية هام فيها الشاعر في وصف حسن وجمال بنات تلمسان تعرف بقصيدة "بنات البهجة" أي بنات تلمسان يقول منها:

فيق ياناييم واستيقظ من المنام واستغى لكلامي يا خاي وافهموا

صاد قلبي محنا واعذاب وانتقام مار قويت على هاذ السر نكثموا

يا بنات البهجة كفوا من الملام سلمو للمشور فالزوين سلموا¹

إن الشاعر الشعبي قد تشرب التقاليد المتوارثة في شعر الغزل العربي القديم وظل يستمد منها أهم العناصر والقيم والصور الشعرية وهو لا يكاد يخرج عنها فعندما نتحدث مثلا عن أبرز الشعراء الذين استرسلوا في غرض الغزل مثل ابن كريو أو مصطفى بن ابراهيم وجدناه «لا يختلف تصوره وممارسته عن تصور الشعراء الشعبيين للمرأة، فهو يستخدم نفس الأسلوب الذي يتكرر لدى جل الشعراء، فالحبيبة دوما تسكن بعيدة عن الحبيب وهو لا يتحمل عناء السفر، وأخطار المهالك إليها بنفسه -في الغالب- وإنما هناك رسول يتولى نقل عواطف الحب واللوعة إلى الخليفة، ورسول يحمل رسالة شغوية على الأكثر، وقد يكون المرسل فارسا يمتطي جوادا أصيلا، أو يكون حماما يقطع الفياقي والقفار، وينتقل فوق السطوح حتى يصل المعشوقة، كما أن هذه الخليفة امرأة غريبة عن العاشق وعلاقته بها سرية خطيرة...»²

ويصوغ مصطفى بن ابراهيم³ عن عاطفة الحب واللوعة التي تركتها في قلبه ذكريات قديمة تلاشت مع الأيام، وتقلبات الأحوال ذكريات الزهراء في مدينة وهران.

حالي ما يشبه بحال وصفي ما توصفه بصيفة

¹ ابن التريكي: ديوان ابن التريكي الملقب ابن زنقلي تقديم وتحقيق، ص 20.

² التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص 94.

³ ولد الشاعر مصطفى بن ابراهيم سنة 1800 وتوفي سنة 1867م في قرية بوجبهة سيدي ابي العباس، وينحدر من أسرة دينية معروفة في تلك الجهة، نسب إلى الولي الصالح سيدي الناصر المعروف (بسبع الحلفاء) وقد كان أبوه من حفظة القرآن الكريم، يعلم صبيان الجهة كتاب الله، ومبادئ الفقه الإسلامي. التلي بن الشيخ، دراسات في الأدب الشعبي ص 87.

كل ليلة تزل المحال¹ محنة تغدا او ذيك تلقى

من وحش صفاوة² الهلال مشتاق خيالها الهايفة³

الحب يزيدني هبال العشق ولا عطاش⁴ عنه

سلبتني زينة الدلال الزهراء حمرة الشفيفة

غرية⁵ دورها الحال نعمان على الخدود ضفى⁶

غشوة⁷ تضوي كالهلال ليلة عشرة كمال ووفاء

تاقر⁸ بيناتنا اجبال كودا⁹ وبلادها مسافة

وبهذا الوصف، يعبر مصطفى بن ابراهيم عما آل إليه حاله، فقد أصبح شبه فاقد للعقل من شدة فراق الزهراء لينقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن رسول الحبيبة الذي جاء ليحمل إليه أخبارها، وعندما رأى الرسول قادما طار قلبه من الفرح والبهجة.

رسلت مرسول ذي ايام جات الحاجة وجات توالي

كي شفته جاء ذا الغلام فرفر¹⁰ ليله املاح عقلي

¹ المحال: جمع محلة وهي الفرقة أو الجماعة المسلحة.

² صفاوة: ضيافة.

³ الهايفة: الهيفاء ضامرة الخصر.

⁴ عطاش: عطش.

⁵ غرية: انفراك شبه حمرة السواك بالفراء.

⁶ ضفى: غطى.

⁷ غشوة: الغرة وهي بياض في مقدمة رأس الحيوان.

⁸ تاقر: طلو المعنى حالت بيننا جبال عالية.

⁹ كودا: صعبة.

¹⁰ فرفر: طار.

نابيته¹ ثم بالكلام من اين أنت ترى انسب لي

واجبني² قال لي انعم انا تصاليتي³ زمالي⁴

تجدد الإشارة أيضا إلى أثر القصص العربي القديم المدون عند الشعراء الشعبيين الجزائريين، من بين هذه القصص مثلا قصة ليلي والمجنون التي تبدو أنها كانت واسعة الانتشار، فالشعراء يشبهون أنفسهم في أغلب الأحيان بقيس العاشق المجنون الذي دخل إلى عالم التصوف من بابه الواسع، فهذا عبد الله بن كرىو يقول:

إذا قالوا قيس لمعنايا تلقاني كي قيس حامل كل عذاب

وإذا قالوا جن ما ثم حكاية اللي خير من ليلي تنصاب⁵

أما العياشي⁶ صاحب قصة يوسف عليه السلام فإنه في نفس القصيدة يقول:

شوف لعنتر قصتو راهي عن عبلة في حالة تزواجو ما صار

والمجنون وليتو سيف العربي عن شامة ما صارلو في جبل النار

أما مصطفى بن ابراهيم الشاعر المشهور فهو يشير في إحدى الرباعيات إلى أنه استفاد من الحب الذي اشتهر في قبيلة بني عذرة، ويقصد بذلك ما عرف بالحب العذري يقول:

ذا العشق المباح من بني عذره اقتلوا

¹ نابيته: كلمته.

² واجبني: أجابني.

³ تصاليتي: أصلي ونسبي

⁴ ينظر: التلي بن الشيخ، دراسات في الأدب الشعبي، ص 96-97-98.

⁵ أحمد الأمين: صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، ص 263.

⁶ البشير عياشي ولد بلشانة دائرة طولقة ولاية بسكرة 1880-1921 من فحول الشعراء كتب أراجيز بالعربية الفصحى واسع المعرفة بالتراث، معلم قرآن وفقهه.

إن الحديث هنا عن علاقة التراث العربى الإسلامى بأشعاره وقصصه وسيره وأساطيره ومروياته يتصل بطريقة غير مباشرة بما يمكن أن نسميه علاقة التواصل والاستمداد الثقافى «وأحيانا الموروثات الثقافية وتارة نجد رواسب تنتمى إلى عهود موعلة فى القدم أو كما يسميه بعض علماء النفس باللاوعى الجمعى، ونخص بذلك فى بعض الموضوعات والموتيفات التى تتكرر عند كل الشعراء الشعبىين وأغلبها ينتمى إلى الشعر الجاهلى والإسلامى معا، كتشبيه المرأة بالنخلة مثلا»²

¹ أحمد الأمين: صور مشرقة من الشعر الشعبى الجزائرى، ص 263-264.

² مرجع نفسه، ص 263-264.